الفصل الثالث

من السيطرة اليونانية إلى الدولة الساسانية

السيطرة اليونانية - عصر تحول جديد:

وصلت الدولة الأخمينية إلى قمة مجدها في عصر دارا، فبلغت أقصى درجة من القوة وازدهار الحضارة في إمبراطوريتها الواسعة. وقد عاشت الإمبراطورية 150 عاماً بعد دارا. ويرجع الفضل في استمرارها لهذه الفترة الطويلة من الزمن إلى الأساس المتين الذي أرساه قورش وإلى البناء الضخم الذي رفع قواعده دارا على هذا الأساس. وقد ظلت الإمبراطورية متماسكة، ولكنها لم تتجدد ولم تتطور. فقد أخفقت الإمبراطورية بعد دارا في تحقيق مزيد من التقدم، كما عجزت عن الدفاع عما خلفه لها المؤسسان العظيمان قورش ودارا، ما أدى إلى سقوطها في النهاية.

وليس من شك في أنه قد مرت بالإمبراطورية بعد دارا فترات قصيرة من الرخاء والتوسع أيضاً، كان السبب فيها يرجع إلى بعض الملوك البارزين الذين جلسوا على عرشها بعد دارا، والذين كانت لهم قدرة دبلوماسية فائقة، تمثلت في حسن تصريف سياستهم الدولية. ولكن هذه الفترات القصيرة من التقدم كانت تزيد من خطر السقوط. فلم يعد الملك في إيران يقود الجيش بنفسه، كما كان يصنع قورش ودارا، وذلك طوال القرن الأخير من حياة الدولة. وارتكزت المنافسات والمؤامرات حول العرش، فكانت تحدث الاغتيالات بين أفراد الأسرة المالكة حين يجلس ملك جديد على عرش إيران[1].

خشيار شاي (اكزرسيس):

لقد عين دارا خشيار شاي ليخلفه على عرش إيران. وقد ولي الحكم بعد أن ظل اثني عشر عاماً والياً على بابل. وكان من أول الأعمال التي قام بها القضاء على الثورة التي بدأت في مصر أيام أبيه. ولقد كان خشيار شاي قاسياً في القضاء

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 142- 143.

على هذه الثورة، ما أثار حقد المصريين وجعلهم يتحينون الفرص للأخذ بثأرهم. وقد تصرف بالقسوة نفسها إزاء ثورة قامت في بابل، فهدم أسوار المدينة وحصونها وحطّم معابدها وصهر تمثال الإله البابلي المصنوع من الذهب. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد يلقب نفسه ملك بابل، وإنما جعل لقبه مقتصراً على ملك «الفرس والميديين». ومنذ ذلك التاريخ لم يعد الملك يمنح ثقته إلا للشعب الحاكم في إيران[1]. فالحملة الشهيرة التي قادها الملك إلى بلاد اليونان 480ق.م انتهت بهزيمة منكرة للأسطول الإمبراطوري وبانتصار ساحق للأسطول اليوناني. وفي نقش اكتشف في برسبوليس يتبدى الوجه الآخر لشخصية خشيار شاي، وتتأكد فيه عناصر إيمانه بالزرادشتية وكفره بالأرباب المؤذية:

«أهورامزدا هو الإله الكبير الذي خلق الأرض والسماء والإنسانية، ومنح الناس سلاماً وجعل خشيار شاي ملكاً ونصبه مشرعاً... أنا خشيار شاي، الملك الكبير، ملك الملوك، ملك بلاد متعددة اللغات، ملك هذه الأرض الكبيرة، ابن الملك داريوس الأخميني.

هكذا يتكلم الملك خشيار شاي: عندما أصبحت ملكاً، ثارت بعض المناطق المذكورة، لكن أهورامزدا يمنحني تأييده، وبرعايته أخضعت أولئك العصاة وأعدتهم إلى الوضع الذي كانوا عليه. ومن جهة أخرى فإن سكان بعض هذه المناطق يعبدون الأرباب المؤذية، ولكنني في ظل أهورامزدا اقتلعت أسس معابد الأرباب المؤذية وأمرت ألا تعبد بعد الآن.

مات خشيار شاي اغتيالاً بعد أن مرَّ في وضع نفسي مضطرب، خرج فيه عن طوره، وعم الاضطراب في الدولة كلها بعده. وفي جو المؤامرات والاغتيالات انقطع حبل التوازن وأخذ ميزان الدولة يميل إلى التدهور، وتعاقبت أشكال الثورات والصراعات الداخلية مدة قرن، فقدت فيها الإمبراطورية الكبرى كل معاني القوة، ولم تعد تمثل سوى واجهة مزعزعة الأركان، إلى حدٍّ بات يؤذن بالانهيار أمام القوة النامية الجديدة التي ظهرت بعد انتظار في العالم الهليني[2].

كان فيليب الثاني المكدوني، بعد تحقيقه نجاحات سياسية وعسكرية كثيرة في اليونان، قد وضع خططاً لإخراج الفرس من آسيا الصغرى. لكن لم يتسنَّ له تنفيذها، حيث أنه قتل اغتيالاً في سنة 366ق.م، فأخذ ابنه الإسكندر على عاتقه هذه المهمة، ولم يكن قد تجاوز سن العشرين بعد.

جهز الإسكندر جيشاً متوسط العدد، تراوح ما بين الثلاثين والأربعين ألفاً. وسار على رأسه في سنة 334 ق.م متقدماً في آسيا الصغرى ومجتازاً المضائق الجبلية الكيليكية والسهول الممتدة شمال شرقي خليج «ايسوس issos» - الذي سمي إسكندرون فيما بعد - حيث كان داريوس الثالث، مع جيش يقارب تعداده المئة ألف،

1- نفس المرجع، ص 144.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 89.

قد تمركز هناك. وفي المعركة التي جرت سنة 333ق.م حقق الجيش اليوناني نصراً ساحقاً، وهرب داريوس نفسه مع شتات جيشه باتجاه الشرق. وقد خلد ذلك الانتصار بتأسيس مدينة على ذلك الخليج دعيت الإسكندرية، ثم غلب فيما بعد اسم إسكندرونة/ إسكندرون.

نتيجة معركة ايسوس أصبحت بلاد الشام كلها مفتوحة أمام الإسكندر، فوجه قائده «بارمينيو» لاحتلال دمشق؛ حيث كان مقر قيادة الفرس، وتابع هو تقدمه على طول الشريط الساحلي؛ حيث خضعت له كل المدن بسهولة، باستثناء صور زعيمة المدن الساحلية التي تحدت سابقاً أقوى ملوك آشور وبابل. فضرب عليها الإسكندر حصاراً مريراً دام سبعة أشهر، لم تتلق المدينة فيها مساعدة من المدن الأخرى، فسقطت بيده في سنة 332ق.م، وكان انتقامه من السكان قاسياً[1].

أثناء حصار صور، قدم له الملك الفارسي داريوس عرضاً مغرياً يتنازل له فيه عن كل غربي الفرات (بلاد الشام بكاملها) وأن يعطيه فوق ذلك مالاً كثيراً ويزوجه ابنته. فكان أن رفض الإسكندر هذا العرض، واستكمل إخضاع كل الساحل الجنوبي. وقد تخلل ذلك حصار لمدينة غزة التي صمدت حوالي شهرين. وبعد الانتهاء منها تابع الإسكندر إلى مصر، ودخلها دون حرب تذكر. وهناك أسس المدينة التي بقيت تحمل اسمه إلى اليونان (الإسكندرية). بعد أن تم له انتزاع بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى من يد الفرس، عاد الإسكندر في أوائل سنة 331 ق.م باتجاه الشمال (سهل البقاع ثم سهل الغاب) ثم تحول باتجاه الشمال الشرقي إلى الفرات. فعبر الجزيرة السورية العليا، ثم عبر نهر دجلة عند نينوى على مقربة من الموصل، متقدماً باتجاه الشرق. وفي منطقة سهلية غير بعيدة عن أربيل جرت معركة فاصلة أنزل فيها الإسكندر هزيمة منكرة بآخر جيش فارسي كبير في بداية شهر تشرين الأول سنة 331ق.م هرب فيها داريوس الثالث للمرة الثانية وتشتت جيشه. فأصبح الطريق مفتوحاً أمام الإسكندر إلى بابل وبلاد فارس. بعد ذلك مباشرة كان هدفه مدينة بابل المقر الرئيسي لحكومة الفرس، فدخلها دون مقاومة، والأكثر من ذلك أن كهنتها ومن كان فيها من موظفين فرس رحبوا به بحماس واستقبلوه بالهدايا. واعتبره الفرس ملكهم الجديد. وكان الملك الفارسي قورش قبل حوالي مئتي سنة قد دخل بابل أيضاً بمثل هذه السهولة.

ولم ينقض وقت طويل أي عام 330ق.م حتى كان الإسكندر قد اكتسح كل المناطق الفارسية الممتدة من سوسه (المقر الصيفي للملوك وعاصمة عيلام القديمة) وبرسيبوليس في الجنوب إلى إكبتانا عاصمة ميديا في الشمال (وهي

1- د. عبد الله الحلو: صراع الممالك في التاريخ السوري القديم، الناشر: بيسان للنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط 1، 1999، ص 231- 232.

همذان فيما بعد). في تلك الأثناء اغتيل داريوس الثالث وهو في معسكره. وانتهت معه سلالة الملوك الأخمينيين التي اعتبر الإسكندر نفسه وريثها الشرعي[1].

وهكذا حلَّ نظام جديد هو إمبراطورية الإسكندر المكدوني. ثم ترسخت قواعد هذا الغزو بتأسيس أسرات حاكمة هيلينية ورثت عروش الشرق القديم: الأسرة السلوقية في سورية وبابل، والأسرة البطلمية في مصر. أما ثمرة هذه التغيرات التي شهدها العالم القديم في أواخر القرن الرابع ق.م. فهي ظهور حضارة جديدة لها ثقافة جديدة هي مزيج من تفاعل ثقافات الشرق والغرب في العصر الذي يعرف بالعصر الهلنستي. لقد امتد هذا العصر على ما يزيد من نصف قرن، وشكَّل في العالم الإيراني مرحلة انتقالية قصيرة، قبل أن تنتزع أسرة حاكمة إيرانية أخرى هي الأسرة الفرثية السيادة على أجزاء كبيرة من الإمبراطورية: السلوقية التي انكمشت واقتصر نفوذها على مناطق من سورية وآسيا الصغرى.

امتزاج الشرق والغرب:

لعل أعظم مأثرة قدمها الإسكندر للتاريخ هي في إتاحته الفرصة لامتزاج الأفكار والمؤسسات اليونانية والشرقية. وكانت عملية التداخل الثقافية قد بدأت قبل عهده، إلا أن فتوحاته زادت في سرعتها وسهلتها. وقد أعطى بنفسه مثالاً على مزج الدم اليوناني والآسيوي بزواجه من الأميرة روكسانا من بكتريا (بلخ) واثنتين غيرها من الأسرة الملكية الفارسية في سوسه. وشجع ضباطه وجنوده ليحذوا حذوه. وكان يلبس في المناسبات الرسمية اللباس الشرقي. وأخذ ينغمس في عادات الفرس الناعمة المتخنثة ويقلد بذخ الملوك الآسيويين. وإنه لحدث عظيم في التاريخ عندما صلى الإسكندر في مأدبة حضرها تسعة آلاف مكدوني وفارسي على ضفاف دجلة لأجل وحدة القلوب ودولة مشتركة. وكان الأنبياء قبله قد تجاوزوا في خيالهم حدود القومية وتصوروا - مهما كان تصورهم ناقصاً - أخوة البشر. ولكننا الآن أمام أول رجل عملي عظيم حلم بمجتمع لا أثر للحواجز فيه بين اليونان والبرابرة، وعمل على تحقيقه.

ولم ينقطع تماماً ذلك الأمل البراق الذي ضمنه الفيلسوف الفينيقي زينون في «جمهوريته» عن أفكار الناس منذ ذلك الحين. كان إنشاء المدن، التي يروى أنها زادت عن السبعين، وسيلة أخرى في تحقيق سياسته المدروسة حول تقارب أوثق بين الشرق والغرب. وهدفت هذه المدن إلى ثلاثة أغراض وهي أن تكون مراكز سكنى للمحاربين المسرحين، وتشكيل سلسلة من النقاط العسكرية على خطوط المواصلات وخلق مراكز لنشر التأثير الثقافي الهليني.

ولا بد أن الإسكندر كان تلميذاً جديراً بأستاذه أرسطو، إذ كان يحتفظ كما يروى بنسخة من إلياذة هوميروس تحت وسادته. ويقال إنه ذكر في رسالة بعث بها

1- المرجع السابق، ص 232- 233.

من آسيا إلى أستاذه أرسطو: أؤكد بالنسبة إلي أنني أفضّل أن أتفوق على الآخرين في معرفة الأحسن، من أن أتفوق عليهم في مدى سلطتي وممتلكاتي». وسرعان ما أصبحت اليونانية لغة العلم. وعندما أتى المسيح برسالته بعد ثلاثة قرون وترجمت إلى اللغة اليونانية، أصبحت في متناول العالم المتمدن كله[1].

تجزؤ الإمبراطورية:

تمزقت الإمبراطورية المكدونية المترامية الأطراف التي تمَّ ضمها بسرعة بعد موت مؤسسها. وتسابق قواد الإسكندر للفوز بأحسن أقسامها. وانطوى هذا التسابق على حروب طويلة دامية. ويبرز من هذه الفوضى أربعة قواد على رأس أربع دول: بطليموس في مصر، وسلوقس في مرزبانة بابل، وانتيغونس في آسيا الصغرى، وانتباتر في مكدونيا. وهكذا «انكسر القرن العظيم وطلع عوضاً عنه أربعة قرون عظيمة تتجه نحو رياح السماء الأربع» كما يقول بلوتارخ. وكان بطليموس أكثر هؤلاء الأربعة ذكاءً، إلا أن سلوقس كان بالتأكيد أقدرهم[2].

المملكة السلوقية:

تحالف سلوقس مع بطليموس ضد أنتيغونس، وبعد حروبهما ضده، وانتصارهما عليه، نال بطليموس فلسطين التي ضمها إلى مملكة البطالمة في مصر، في حين أن سلوقس استرجع بابل.

وفي معركة ابسوس IPSOS ضد أنتيغونس أحرز سلوقس انتصاراً هاماً، حقق له الفوز بالقسم الشرقي من آسيا الصغرى وسورية، فشكل مملكة واسعة تعتبر من أعظم ممالك المكدونيين التي ظهرت على أنقاض إمبراطورية الإسكندر.

أعجب ملك سورية (سلوقس نيكاتور) بسياسة قائدة الإسكندر، واعتبر بناءه لمدينة (الإسكندرية) عملاً هاماً جديراً بمتابعته، فبنى سلوقس مدناً جديدة حملت اسمه (مثل السويدية) واسم أبيه أنطيوخس (مثل أنطاكية) واسم زوجته الآسيوية (أفاميا) واسم أمه لاوديسة (مثل اللاذقية).

وكان سلوقس يعتقد بأن البلاد تنطبع بالطابع الإغريقي بقدر ما يبنى فيها من مدن حديثة. وكان يقيم في هذه المدن الحديثة جنود قدماء من مكدونيين ويونان. وكان الحكام يعتمدون على هؤلاء في إدارة البلاد ومراقبة السكان أصحاب البلاد، ما جعل لهذه النهضة العمرانية أهدافاً سياسية، ومآرب استعمارية، وغايات ثقافية[3].

1- د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج 1، ترجمة د. جورج حداد و د. عبد الكريم رافق، دار الثقافة – بيروت 1982، ص 258- 259.

2- نفس المرجع، ص 260.

3- نفس المرجع ص 261.

ولا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من المدن التي اعتبرت حديثة، لم تكن في الواقع سوى مدن قديمة أُعيد بناؤها أو اقتصر على تغيير اسمها فقط.

ومهما يكن من أمر، فإنه يمكن اعتبار أنطاكية واللاذقية وأفاميا ودورا أوروبس مدناً حديثة أنشت في العصر الهلنستي، فازدهر فيها الفن حتى غدت مراكز رئيسة للثقافة والفنون[1].

وأقيمت مدن يونانية في إيران، ومنها أنطاكية في فارس وهي بوشير ولاوديقية وهي نهاوند. وأطلقت أسماء يونانية على معظم المدن القديمة. وكان لهذه المدن تأثير عميق في طبيعة النظام السلوقي، وخاصة في المناطق التي كان فيها وجود هذه المدن - المستعمرات كثيفاً كالأناضول مثلاً وفي شمال سورية؛ حيث أثرت تأثيراً عميقاً في حياة السكان الأصليين وفي الحياة اليومية المدنية. ولكن عمق التأثير الهليني في العالم الإيراني كان أقل منه في المناطق الغربية الواقعة على شواطئ المتوسط، كما في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ومصر.

إيران في العصر السلوقي:

لم يغير المستعمرون اليونانيون شيئاً كثيراً من النظام الاجتماعي القائم، ولكنهم أقاموا إلى جواره مدنهم ومستعمراتهم لممارسة الحرف والصنائع، وللتبادل التجاري بالتعاون مع الطبقة السائدة في المنطقة وزعمائها. وبقيت هذه الجالية اليونانية مرتبطة بالمجتمع الإيراني حتى بعد ثورة الفرثيين الذين كانوا يسيطرون على مناطق تقع إلى الشرق والجنوب من بحر قزوين. وظلت هذه الجالية، بعد انفصال الفرثيين عن الإمبراطورية السلوقية واستقلالها بمناطق واسعة من شرقي إيران، في أداء دورها بنشر الثقافة الهلينية على أبواب الهند وفي قلب آسيا حتى سقوطها وتشتتها عند دخول موجات من البدو الإيرانية إلى مناطق باكتريان في أواخر القرن الثاني ق. م. وبدخول هذه الموجات البدوية الإيرانية، اكتسب العنصر الإيراني قوة بشرية، ساعدت على تأسيس مملكة جديدة هي المملكة الفرثية بزعامة أسرة حاكمة جديدة هي الأسرة الارشاقية. وقد عملت هذه الأسرة على اقتلاع النفوذ الهليني، ثم الصمود أمام التوسع الروماني. وقد قامت الدولتان في العصرين الفرثي ثم الساساني بهذا الدور قرابة ثمانية قرون، ووقفت بوجه السياسة التوسعية للإمبراطوريات التي قامت على الحدود الغربية للعالم الإيراني وهي السلوقيون ثم الرومان ثم البيزنطيون.

واستمر هذا الموقف حتى قيام الدولة العربية الإسلامية، التي دخل العالم الإيراني في إطارها، واندمجت ثقافته بثقافتها قروناً عديدة حتى الغزو المغولي. وعندما حاول سلوقس الثاني (246-226) العمل على مواجهة الموقف في الجبهة

1- بشير زهدي: الفن الهلنستي والروماني في سورية، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، ص 10.

الشرقية، دفع الفرثيين إلى التراجع أمامه بعد أن اخترق خطوطهم بنجاح باهر. ولكن خططه انقلبت رأساً على عقب، عندما وصلت إليه أنباء عن أحداث خطيرة وقعت في غيبته في العاصمة أنطاكية، فقفل راجعاً إلى سورية بعد أن تخلى عن خططه على الجبهة الشرقية. وقد منح هذا الظرف الدقيق الفرثيين فرصة تاريخية لإحراز انتصار سهل حين تمكنوا دون مقاومة تذكر من بسط سيطرتهم على معظم المناطق الإيرانية الشرقية. وهكذا انتقلت السيادة على إيران لأول مرة منذ سقوط الأسرة الأخمينية إلى أسرة إيرانية هي الأسرة الأرشاقية كما ذكرنا[1].

تبدت مظاهر التنازع بين الثقافة الفارسية القديمة والثقافة الهيلينية الوافدة على الصعيد اللغوي. فإلى جانب الفارسية والآرامية في المناطق الإيرانية، بقيت اللغة اليونانية لغة التعليم في المدن اليونانية حتى بعد قيام الدولة الفرثية، وتراجعت الإمبراطورية السلوقية عن كثير من الأقاليم الإيرانية. وأمام تعدد الثقافات صارت بعض المجتمعات مزدوجة اللغة. وكان التأثير الثقافي اليوناني عميقاً، إلى حدِّ أن اليونانية بقيت لغة متداولة في المدن الإيرانية إلى جانب الفارسية البهلوية في العصر الفرثي، كما تدل على ذلك الكتابة اليونانية على العملة الفرثية[2].

الدولة الفرثية:

نشأت دولة الفرثيين من قبيلة بارني parni إحدى قبائل البدو التي كانت تعيش في المراعي الممتدة بين بحر قزوين وبحر آرال. وكان هؤلاء الناس فرساناً ومحاربين أشداء. والظاهر أن هذه الدولة بدأت في الظهور نحو 250ق.م، وقد قامت بين البارثيين وبين السلوقيين منازعات وحروب، انتهت بانتصار البارثيين، وأصبحت دولتهم تمتد في عهد ميتراديداتس mithridates المتوفى سنة 137ق.م من نهر الفرات إلى هراة (الواقعة في أفغانستان الآن). ورغم أن دولة البارثيين كانت دولة إيرانية، إلا أنها كانت متأثرة بالحضارة اليونانية، والثقافة اليونانية. وكانت في أنحاء هذه الدولة مدن يونانية تنتقل منها آثار اليونان الثقافية والاجتماعية إلى أنحاء أخرى.

وقد دارت بين هذه الدولة وبين الدولة الرومانية - التي كانت في ذلك الوقت دولة فتية - منازعات وحروب كثيرة، ولكن لم تستطع إحداهما القضاء على الأخرى. وكانت أرمينيا أهم المناطق التي كثر تنازع الدولتين عليها[3].

انقسم المشرق القديم بين القوتين القائمتين في المنطقة: روما من جهة، وفرثيا من جهة أخرى، اللتين تواجهتا على امتداد جبهة طويلة، كان الفرات واجهتها الاستراتيجية. وبعد أن قامت الحملات الفرثية على سورية في القرن

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها، ص 120-121.

2- نفس المرجع، ص 129-130.

3- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 169.

الأول بقيادة أورود الثاني، لم تستطع الحملات الرومانية التي تتالت بقيادة ترايانوس وسيفروس في القرنين الأول والثاني عبر الفرات على مناطق الجزيرة العليا وأرمينية، أن تغير من ميزان القوى بين الدولتين على هذه الجبهة، رغم استيلاء الرومان على نينوى العاصمة الآشورية السابقة لجعلها رأس جسر لتوسعهم على نهر دجلة وأعالي الرافدين. فقد تمتع الفرثيون بقوة عسكرية كبيرة، تجلت في جيوشهم الضخمة التي كانت تضم فرقاً وكتائب من رماة السهام ومن الفرسان الخفاف والثقال المدرعين بالزرد والحديد.

في هذه المواجهة بين الحضارات على أرض الشرق القديم تراجعت الهلينية في الأقاليم التي يسيطر عليها الفرثيون لانقطاعها عن البحر المتوسط، بسبب الصراع الروماني - الفرثي. وبقي الوضع سجالاً بين الطرفين طوال قرن ونصف القرن، دون أن يكون في إمكان الملوك الفرثيين تغييره.

استردت بابل مكانتها القديمة بوصفها عاصمة الإمبراطورية، وبنيت إلى جانبها طيسفون (المدائن) ولكن المدن اليونانية احتفظت بطابعها الهليني وسط حضارة الشرق القديم مثل سلوقية على نهر دجلة. ومما كانت له دلالته انتقال العاصمة الفرثية من أقصى الشرق إلى طيسفون.

تطورت اللغة الإيرانية الفارسية بتأثير الآرامية إلى اللغة البهلوية. ورغم عودة الثقافات المحلية وانبعاثها بعد الانتصار المرحلي للهلينية، فإن نزاع الفرثيين العنيف مع الدولة السلوقية لم يكن يعني انحسار الثقافة الهلينية عن العالم الإيراني. فقد أعلن الملوك الفرثيون تمجيدهم للثقافة الهلينية كما فعل ميترايداتس الذي دعا نفسه (بفيلهيلين) أي محباً للهلينية، وأحاط نفسه بالفنانين والممثلين اليونانيين.

ومن جهة أخرى، ورثت الدولة الفرثية التقاليد التجارية الدولية للعصرين الأخميني والسلوقي. فقد اجتمعت في خزائن الملوك الفرثيين أموال وفيرة من المكوس والأتاوات المفروضة على الطرق الوحيدة للتجارة البرية ما بين الصين والهند من جهة، وحوض البحر المتوسط من جهة أخرى. وبعد الغزوات والغارات المتبادلة تحركت قوافل فرغانة التجارية نحو الصين لجلب الفرو والحرير والمصنوعات الحديدية والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة. ونجمت عن هذه الاتصالات تبادلات واسعة وعلاقات متصلة عبر العصور. ولم يفد الملوك وحدهم من هذه المبادلات، وإنما عملت على تنمية طبقة من التجار والوكلاء والوسطاء من اليونانيين والفرثيين وغيرهم. ويبدو الطابع المزدوج للهوية الحضارية في العصر الفرثي في أسماء الأعلام، فإنه من المألوف أن نجد ضمن الأسرة الواحدة من يحمل أسماء يونانية وآخرين يحملون أسماء إيرانية. حتى الآلهة وعرفت بالأسماء مزدوجة، فقد دعي (زوس) أهورامزدا، و (هيلوس) = الشمس ميترا. وهكذا برهنت الحضارة الإيرانية على قدرتها في التفاعل الإيجابي مع الحضارات الأخرى في العصر الأخميني وعلى مزاياها في التلاؤم مع الشرط التاريخي الثقافي في العصر الفرثي.

وهكذا بقيت للثقافة الهلينية جذور وقواعد ظلت تتغلغل وتعلو وتنتشر في أواخر العصر الساساني ثم في الحضارة العربية الإسلامية[1].

الساسانيون:

كان إقليم فارس موطن انبعاث الحضارة الإيرانية من جديد في القرن الثالث الميلادي. فقد أقام الساسانيون في ذلك القرن دولة إيرانية الطابع ذات دين قومي هو الدين الزرادشتي. وكذلك أقاموا حكومة مركزية قوية، استطاعت أن تكبح جماح الحكام الإقطاعيين، كما جندوا جيشاً قوياً مدرباً، وأنشأوا نظاماً إدارياً محكماً. وبظهور الدولة الساسانية على مسرح التاريخ، أصبح العالم في ذلك الوقت تتنازعه قوتان هما روما وإيران.

بعد تدهور الأسرة الأرشاقية الفرثية في مطلع القرن الثالث الميلادي، نهضت إيران على أيدي أسرة حاكمة جديدة كانت آخر الأسرات المالكة في تاريخها القديم وهي الأسرة الساسانية.

كان ساسان جد هذه الأسرة كاهناً في معبد الربة أباحيتا في اصطخر، وقد استولى ابنة بابل الذي خلف أباه في سدانة المعبد على السلطة في إقليم فارس في جنوب غربي إيران، وأعلن انفصاله في نحو 208م عن الملك الغربي المقيم في عاصمته طيسفون (المدائن). وبعد أن تزوج بابل ابنة أحد الأمراء المحليين في فارس، ادعت الأسرة الساسانية انتماءها إلى البيت الأخميني القديم صاحب الحق التاريخي بالعرش الفارس، بينما أنكرت الأسرة الارشاقية هذا الانتماء.

وبعد صراع مرير، استطاع هذا البيت المالك الجديد تأسيس دولة ضمت معظم إيران، وقامت على قاعدة اجتماعية لها ثقافة متميزة وديانة خاصة وتاريخ طويل. لقد كان الساسانيون يحاولون أن ينفذوا سياسة خارجية أساسها القوة والمحافظة على دولتهم، ولذلك فقد وقعوا في حروب كثيرة، فكانوا يحاربون الرومان في الغرب والبدو الآسيويين على الجبهة الشرقية، وكان عليهم مواجهة المشكلة الأرمينية. ثم هناك بعد ذلك القادة العسكريون الذين تنازعوا السلطان فيما بينهم حين ضعف الملوك، وكذلك المؤامرات التي كانت تحاك حول العرش... وكان على الإيرانيين خوض سلسلة من الحروب، امتدت أربعة قرون ما بين القرنين الثالث والسابع، دون أن تتمكن الدولة دائماً من تحقيق نصر حاسم أو الوصول إلى توازن مع الجانب الآخر الروماني ثم البيزنطي. وقد سهلت هذه الأمور مهمة العرب الذين ظهروا على مسرح التاريخ، بعد أن وحد الإسلام بينهم، فسددوا ضربة إلى دولة الفرس قضت عليها[2].

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 137-138.

2- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 170.

تطورت الدولة الساسانية من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية كبرى، فقد استطاع أردشير الأول (226-241م) حفيد ساسان القضاء على أرطبان الخامس في ميدان المعركة، وأخضع العاصمة سلوقية - طيسفون (المدائن فيما بعد) وضم إلى ملكه مناطق أخرى. وتوج ملكاً للملوك في 226م وعلى الرغم من تدخل مملكة الكوشان الواقعة في الشمال الغربي من الهند (البنجاب وجنوبي أفغانستان) لمساعدة الأسرة الفرثية، فقد استطاع أردشير إحراز نصر على المتدخلين وأوقف تحركات الرومان الذين حاولوا استغلال الظروف، وهكذا دخل تاريخ إيران في طور جديد. وظهرت الدولة الجديدة وكأنها وريثة العصر الأخميني وتقاليده القديمة.

ثم جاء شابور الأول وقد ورث من أبيه أردشير دولة بقي فيها كثير من نظم البارثيين، وفي مقدمتها نظام الإقطاع، ولكن الساسانيين نظموا هذا الإقطاع، بأن أخضعوه لقدر كبير من الإدارة المركزية. وقد قامت هذه الدولة على دعامتين قويتين، هما الجيش المنظم والإدارة الحازمة.

وجه شابور اهتمامه إلى الشؤون الخارجية منذ بدء حكمه. لقد ظهرت الدولة الكوشية مصدر خطر سياسي واقتصادي بالنسبة إلى الدولة الجديدة. وقد تقدم شابور لمحاربتها، يحدوه الأمل في تأمين حدوده الشرقية، وكذلك في الاستيلاء على الثروات التي تراكمت في هذه الدولة، نتيجة لازدهار تجارتها الخارجية. نجح شابور في إيقاع الهزيمة بالأسرة الكوشية، ووصل في غزواته إلى سمرقند وطشقند. وكان من نتائج هذا الغزو القضاء على الأسرة الكوشية، وإضافة قسم كبير من أملاكها إلى الدولة الساسانية، وإحلال أسرة موالية للفرس محل هذه الأسرة المغلوبة[1].

وبعد أن حقق شابور انتصاراً في الشرق، اتجه إلى الغرب، فوقعت بينه وبين الروم حروب، انتهت بفرضه جزية كبيرة وضم العراق وأرمينيا إلى أملاكه. وكان ذلك في عام 224م. وبعد خمسة عشر عاماً من هذا التاريخ، استؤنفت الحرب بين الفرس والروم، وانتصر الفرس انتصاراً باهراً بجوار الرها، ووقع الإمبراطور فاليريان أسيراً في قبضة شابور، وكذلك أُسر ألوف من الرومان، سيقوا إلى النفي في إيران؛ حيث استقروا في مدن بنيت على طريقة المعسكرات الرومانية، وذلك في عام 260م. وقد أمدَّ هؤلاء الإمبراطورية بالأخصائيين والمعماريين والمهندسين والفنيين الذين استخدموا على نطاق واسع في الأعمال العامة، وبخاصة بناء الجسور والقناطر والطرق التي سببت رخاءً عظيماً لإقليم خوزستان الغني. ومن العجيب أن بعض بقايا هذه المنشآت لا يزال يستخدم حتى يومنا هذا.

1- نفس المرجع، ص 172.

وإلى جانب فتوحاته العسكرية، فإن شابور أكمل ما بدأه أبوه من تنظيم داخلي للإمبراطورية، وكان واسع الاهتمام بالمعارف، ولذلك فقد أمر بترجمة كثير من المؤلفات اليونانية والهندية التي تتعلق بمختلف مسائل العلم كالطب والفلك والفلسفة. ولما كان هذا الإمبراطور مؤسساً لدولة واسعة، فقد اهتم اهتماماً كبيراً بـ (ماني) وديانته. وكان ماني هذا داعية آسيوياً، ظهر في إيران بمذهب جديد، اقتبست عناصره من الزرادشتية والمسيحية والبوذية. وكان يهدف من دعوته إلى توحيد العالم في ظل دين واحد. وقد اهتم شابور بهذا الدين وقرّب ماني وأيده. ولكن دعوة ماني، بما اشتملت عليه من حث على الزهد، وتنفير الناس من الاهتمام بالمادة، واعتبارها شراً لا بد من التخلص منه، جعلت هذا الدين عاجزاً عن الوفاء بحاجة دولة عظيمة، تقوم على أساس دنيوي مكين.

ولهذا فقد انعكس الحال بالنسبة إلى ماني بعد وفاة شابور (272م)، حيث اضطُهد، ثم قُتل أيام حكم بهرام الأول[1].

وهكذا، بينما كانت الإمبراطورية الرومانية تميل إلى الانحدار والانقسام، كان العالم الإيراني يتجه نحو الوحدة من خلال إنشاء مملكة قوية. ففي أيام أردشير وشابور أنشئت المدن الجديدة التي حملت اسميهما ومنها قصر بيشابور في فارس ونيسابور في فرثيا وجنديسابور في خوزستان. وربما كان هو أول من شيد الديوان.

أما شابور الثاني الذي حكم مدة طويلة (310-379م) فقد جعل من القرن الرابع عصره، ومضى في تعزيز أركان الدولة، فأحكم سيطرته على بلاد الكوشان، وأوقف غزو الهون الذين تحركوا من آسيا الوسطى، وردَّ بنجاح الهجوم الذي قاده الإمبراطور الروماني يوليانوس عام 363م، ولكنه اضطر إلى قبول اقتسام أرمينية مع الرومان. وهكذا بلغت الدولة درجة كبيرة من القوة، ولكن الحدود الشرقية بقيت مصدر قلق، ولم تكن الحكومة المركزية على قدر كاف من المقدرة لإدارة إمبراطورية مترامية الأطراف، ثم ساعدت الاضطرابات الداخلية والصراعات الاجتماعية، خلال القرنين الخامس والسادس، على ترك البلاد تحت رحمة هجمات قبائل الهون المتكررة.

وبعد أن مرت البلاد في مرحلة حرجة من الصراع الفكري - الديني بين الزرادشتية التقليدية والمذاهب المنشقة عنها كالمانوية والمزدكية وغيرهما في أيام الملك قباذ (ما بين 488 و 531م) وما نجم عن ذلك من تطورات اجتماعية، شهدت الإمبراطورية الساسانية في القرن السادس نهضة جديدة على يدي خسرو (كسرى أنو شروان) (ذي النفس الخالدة) الذي امتد حكمه قرابة نصف قرن (531-579م)، وهو يعدُّ من أعظم عصور التاريخ الفارسي القديم[2].

1- المرجع السابق، ص 172-173.

2- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس، ص 143-144،

استطاع هذا الملك القيام بحملة على سورية ودخول أنطاكية على العاصي عام 540م، فاضطرت بيزنطة إلى عقد الصلح. وبعد أن اطمأن كسرى إلى الجبهة الغربية التفت إلى الجبهة الشرقية، وحقق انتصاراً كبيراً على الهون، ودفع حدود إمبراطوريته إلى نهر أوخوس. وقد نجح العاهل الساساني لأول مرة في مدِّ نفوذه على سواحل الجزيرة العربية، واستطاع بدخول اليمن وضع مصادر التجارة العربية تحت رحمته مستغلاً الظرف الدولي المواتي والانقسامات الداخلية في الجزيرة العربية. وجعل الملك عاصمته طيسفون (المدائن) التي توسعت وضمت مجموعة من المدن. وتحدثت الروايات الفارسية والعربية عن أخبار هذا العاهل الذي رعى العمران والآداب والعلوم وأفسح المجال لنقل ثقافات اليونان والهند والصين. ودخلت في معارف الفرس معارف الشعوب الأخرى في الطب والحساب. تسلم حكم الإمبراطورية بعده ابنه هرمزد الرابع (579-590م)، وتوالت بعد ذلك الأحداث في الأعوام الباقية من حكم الدولة الساسانية. وكان من أهم هذه الأحداث الصراع بين الفرس والروم في عصر إمبراطور الروم هرقل، وملك الفرس خسرو أبرويز. اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية هراقليوس (هرقل) (610-642م) واستطاع بسرعة تغيير الموقف على جبهة الروم، فبعد أن اخترق كيليكية، أوقع في جبهة الفرس هزائم فادحة على خطوط آسيا الصغرى وأرمينية، وتقدمت جيوش هرقل وهددت عاصمة الساسانيين (المدائن) ومقر كسرى الثاني بالحصار بعد معركة نينوى في 627. وفي خضم الصراعات الطاحنة والمؤامرات العاصفة مات كسرى الثاني اغتيالاً، تاركاً الدولة دون وريث قادر على تسلم العرش. وبدت هزيمة كسرى للمعاصرين سقوطاً مريعاً لأهورامزدا وللديانة الفارسية أمام المسيحية الصاعدة[1].

أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الروم)، فقد خرجت منهكة القوى من هذا الصراع الرهيب. وبدا وكأن الساحة الدولية في الشرق الأدنى قد خلت أمام القوة الناهضة الجديدة التي ظهرت في مطلع القرن السابع في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام. إذ تم للمسلمين فتح إيران عام 652م، وانتهى بذلك العصر الساساني، وبدأ عصر الدولة العربية والحضارة العربية الإسلامية.

الدولة والمجتمع في العصر الساساني:

لم يتمكن الساسانيون من إحداث تغيير جذري في تاريخ إيران القديم. وكل ما تمَّ على أيديهم سياسياً، هو نقل السلطة الحاكمة من شمال إيران إلى جنوبي البلاد. لكن مركز الدولة الإمبراطورية بقي في مكانه كما كان في العصر الفرثي. فقد بقيت بابل هي العاصمة الثقافية التاريخية للشرق، لكن الضاحية الملكية طيسفون (المدائن) كانت مقر الأكاسرة.

1- المرجع السابق، ص 145.

وأبقى الساسانيون على النظام الإقطاعي للدولة، كما كان في العصر السابق بالنسبة إلى العلاقات الاجتماعية، لكنهم حاولوا إحلال نظام جديد للإدارة على درجة كبيرة من التطور في حينه، كان من شأنه إضعاف الأمراء المحليين لتقوية الإدارات الإقليمية للولاة (المرازبة) التابعين للسلطة المركزية. وأوجدت دواوين كثيرة ألحقت بكبير الوزراء. وقد ترك هذا النظام الإداري بصماته في أنظمة الحكم في المنطقة لمدة طويلة.

عقدت الإمبراطورية الساسانية، خلال أربعة قرون التي امتد فيها حكمها، علاقات سياسية وحربية ودبلوماسية واقتصادية مع القوى المجاورة: روما والقسطنطينية والهند والصين. وكان الفرس القدماء صلة الوصل ما بين هذه الحضارات في تسهيل النقل والتفاعل ما بين الثقافات، والتبادل التجاري بين الشعوب، فعن طريقهم وصل حرير الشرق إلى الغرب، ووصلت إليه الأواني الفضية النفيسة. ودخلت في الأدب الفارسي مؤثرات من الآداب الهندية، وانتشرت حكايات وأخبار وحكم عن طريقهم في آداب الشعوب. وتفاعلت الأساليب الفنية في التصوير ما بين الصين وفارس. وفرضت على الفنانين موضوعات تمثل الملكية في صورة الألوهية على الأرض، وظهر الملك في هذه الرسوم بطلاً فاتحاً وصياداً ماهراً. وقد خلف العصر الساساني آثاراً معمارية شيدت من الحجارة والصخور ومنها القصور ومعابد النار والحصون والسدود، وقد تميزت هذه الأوابد بالقباب وأبهاء الاستقبال الواسعة وبالغرف العديدة التي أقيمت حول الإيوان. ومن أهم هذه القصور فيروز أباد، وبيشاور وقصر شيرين، ونقش رستم ونقش رجب. وفي هذه القصور وجدت رسوم ومنحوتات جدارية رائعة متميزة تصور حياة العصر والمواكب الاحتفالية الملكية والأزياء المختلفة المدنية والعسكرية ونماذج مختلفة من مظاهر حياة شعوب الإمبراطورية الساسانية الواسعة[1].

كان المجتمع الإيراني القديم قبل الإسلام مجتمعاً طبقياً، وكان الحكم وراثياً في الأسرة الساسانية. وينتقل العرش بالوراثة من الملك إلى أبنائه.. وما أن يجلس الملك على سدة العرش حتى يحاط بكل مظاهر الإجلال ومراسم الإكبار. وقد تحدثت المصادر الفارسية والعربية عن طراز الملوك وملابسهم وعن منحهم وأعطياتهم الوفيرة وإقطاعاتهم لرجال حاشيتهم الذين كانوا يتبارون في اكتساب مرضاتهم بالطرق الممكنة كلها. وكان كسرى يتصرف بأموال وفيرة جداً، فخزانته هي خزانة الدولة والأموال التي كان يجبيها عمال الخراج كانت تودع في خزائنه ينفق منها كيف يشاء على الجيش والأعوان. وتتحدث المصادر اليونانية المعاصرة عن التكوين القبلي للمجتمع الإيراني القديم، (ونجد ذلك عند هيرودوتس وكزينوفون) فتذكر أسماء القبائل الإيرانية وتوزعها والمناطق التي استقرت فيها. وأهم هذه القبائل البازار كاديون في فارس وإليها تنتمي الأسرة الأخمينية. وإلى

1- المرجع السابق، ص 146-147.

جانب الأسرات الحاكمة كانت لبعض الأسر مكانة متميزة بحكم موقعها من الأسرة المالكة والمجتمع.

وتذكر الأفستار (الأبستاق) أربع طبقات اجتماعية وهي: الكهنة، والمحاربون وهم من الفرسان، والرجالة، والعاملون من الحراث والصناع. وفي العصر الساساني ظهرت من هذه الطبقات الاجتماعية طبقة الكتاب ومنهم كتاب الرسائل والمحاسبون ومسجلو العقود، وإلى الكتاب ينضم الأطباء والشعراء والمنجمون.

ورجال الدين أنواع، فمنهم القضاة والزهاد والسدنة والمعلمون... وأمر الملك أردشير في مطلع العصر الساساني بتنصيب رئيس على كل طبقة اجتماعية. وعين معلمين صناعاً لتعليم كل فرد صنعة أو عملاً، وجعل للسدنة القائمين بالشعائر الدينية وللمعلمين والقضاة مرتبات من خزانة الدولة. أما أبناء المحاربين فكانوا يدربون على حمل السلاح وآداب الحرب. وأما الكتاب فقد عني الملوك بتأهيلهم وبخاصة كتاب الرسائل منهم وأطلقوا عليهم لقب "تراجمة الملوك". وكان لأصحاب كل طبقة طراز خاص من اللباس يعرف به بحسب مراتبهم[1].

الأديان والعقائد في العصر الساساني:

قامت الدولة الساسانية بإحياء الزرادشتية، وأعادت إليها قوتها، وجعلتها دين الدولة الرسمي. ففي عصر هذه الدولة جمعت نصوص الأفستا من جديد، وسادت الزرادشتية من جديد نحو أربعة قرون. ولكن الفتح العربي الإسلامي الذي وقع في عام 651م كاد يقضي عليها، فأسلمت الكثرة الغالبة من سكان إيران، وفرَّ بعض أتباع الدين الزرادشتي إلى الهند؛ حيث بقوا على دينهم، وسموا هناك بالبارسيين نسبة إلى وطنهم الأصلي فارس.

لم يخلُ تاريخ الزرادشتية في العصر الساساني من اضطرابات داخلية، فمنذ ظهور المسيحية في الغرب، بدأت تظهر في فارس حركات ترمي إلى المزج بين الديانتين، وكان أهم هذه الحركات حركة مرقيون وحركة ابن ديصان. وجاءت بعدهما حركة أكبر منهما وأخطر هي حركة ماني، وقد سعى هذا إلى توحيد العالم في ظل ديانة واحدة، فدعا إلى دين يتكون من عناصر من الأديان السائدة في عصره وهي: الزرادشتية والمسيحية والبوذية.

وتعتبر كتب التاريخ الإسلامي من أهم المصادر التي ذكرت هذه الحركات الدينية. وفيما يلي بعض ما كتبه البيروني عن مرقيون وابن ديصان وماني. يقول:

«نعود الآن فنقول إن الفرس كانوا يدينون بما أورده زرادشت من المجوسية، لا يفترقون فيها ولا يختلفون إلى ارتفاع عيسى، وتفرق تلامذته في الأقطار المختلفة

1- المرجع السابق، ص 149-150.

للدعوة. وإنهم لما تفوقوا في البلاد وقع بعضهم إلى بلاد فارس، وكان ابن ديصان ومرقيون ممن استجاب، وسمعا كلام عيسى وأخذا منه طرفاً. واستنبط كل واحد من كلا القولين مذهباً يتضمن القول بقدم الأصلين. وأخرج كل واحد منهما إنجيلاً نسبة إلى المسيح وكذب ما عداه. وزعم ابن ديصان أن نور الله قد حل في قلبه. ولكن الخلاف لم يبلغ بحيث يخرجهما وأصحابهما من جملة النصارى. ولم يكن إنجيلاهما مباينين في جميع الأسباب لإنجيل النصارى، بل زيادات ونقصان وقع فيهما والله أعلم.

ثم جاء من بعدهما ماني تلميذ فادرون، وكان عرف مذهب المجوس والنصارى والثنوية، فتنبأ وزعم في أول كتابه المكرسوم بالشابرقان - وهو الذي ألفه لشابور بن أردشير أن الحكمة والأعمال هي التي لم يزل رسل تأتي بها في زمن دون زمن، فكان مجيئهم في بعض القرون على يدي الرسول الذي هو البد (بوذا) إلى بلاد الهند، وفي بعضها على يدي زرادشت إلى أرض فارس، وفي بعضها على يدي عيسى إلى أرض المغرب. ثم نزل هذا الوحي، وجاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يدي ماني رسول إله الحق إلى أرض الشرق، وذكر في إنجيله الذي وضعه على حروف الأبجد الاثنين والعشرين حرفاً أنه الفارقليط الذي بشر به المسيح، وأنه خاتم النبيين وأخبر عن كون العالم وهيأته بما يضاد نتائج البراهين والدلالات. ودعا إلى ملك عوالم النور والإنسان القديم وروح الحياة، وقال بقدم النور والظلمة وأزليتهما. وحرَّم ذبح الحيوان وإيلامه، وإيذاء النار والماء والنبات على أبلغ وجه. وشرع نواميس يفترضها الصديقون وهم أبرار المانوية وزهادهم على أنفسهم من إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة، ورفض الدنيا والزهد فيها، ومواصلة الصوم، والتصدق بما أمكن، وتحريم اقتناء شيء خلا قوت يوم واحد ولباس سنة، وترك الزواج، وإدامة التطواف في الدنيا للدعوة والإرشاد. ورسوماً أخرى يفرضونها على السماعين، أعني أتباعهم والمستجيبين لهم من المختلطين بالأسباب الدنيوية من التصدق بعشر الملك، وصوم سبع العمر، والاقتصار على امرأة واحدة، ومواساة الصديقين وإزاحة عللهم. وكانت ولادة ماني في بابل في قرية تدعى مردينو، وجاءه الوحي وهو ابن ثلاث عشرة سنة. ولما ظهر كثر مصدقوه وأتباعه، وألف كتباً كثيرة كإنجيله والشابرقان وكنز الأحياء وسفر الجبابرة وسفر الأسفار، ومقالات كثيرة زعم فيها أنه بسط ما رمز به المسيح. ولم يزل أمره يزداد أيام أردشير وابنه شابور وهرمز ابنه إلى أن ملك بهرام بن هرمز فطلبه حتى وجده وقال: إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم، فالواجب أن نبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده. فالمشهور من حالة أنه قتله، وحشاه تبناً، وعلقه من باب مدينة جنديسابور. ويعرف إلى زماننا هذا بباب ماني. وقتل خلقاً ممن استجاب له. وبقي من مستجيبيه بقايا منسوبة إليه، متفرقة الديار لا يكاد يجمعهم موضع واحد في بلاد الإسلام إلا الفرقة التي بسمرقند المعروفة بالصابئين. فأما خارج دار الإسلام فإن أكثر الأتراك الشرقية وأهل

الصين والتبت وبعض الهند على دينه ومذهبه. وهم في أمره على قولين: فرقة تقول إنه لم يكن لماني معجزة، وتحكي أنه أخبر بارتفاع الآيات عند مضي المسيح وأصحابه. وأخرى تزعم أنه كان ذا آيات ومعجزات، وأن سابور الملك آمن به حين رفعه مع نفسه إلى السماء ووقفا بينها وبين الأرض في الهواء، وأراه بذلك الأعجوبة، قالوا وإنه كان يصعد من بين أصحابه إلى السماء فيمكث فيها أياماً ثم ينزل إليهم»[1].

وقد كان ظهور مرقيون نحو عام 142م، وظهور ابن ديصان نحو عام 172م أما ماني فقد كان بدء دعوته نحو عام 242م. وقتل حوالي 273 أو 274م.

ولقد بدأت الثنوية تظهر غرباً في تعاليم الغنوصيين hnostics (العارفين) الذين بلغت حركتهم درجة من الأهمية في أوائل القرن الثاني الميلادي، وبلغت أقصى قوتها في الربع الثالث من ذلك القرن، ثم أخذت بعد ذلك في الضعف. وقد قالت هذه الدعوة بعالم للخير وعالم للشر.

وتجلت الثنوية بحركة مرقيون. وكان هذا رجلاً غنياً يملك السفن. ولد وثنياً ونشأ نشأة وثنية، ثم اعتنق المسيحية، وذهب إلى روما عام 140م، وهناك حاول أن ينشر مذهبه الذي كان يتنافى مع تعاليم الكنيسة في روما، ولكنه لقي معارضة شديدة من جمهور المسيحيين، وفُصل من الكنيسة، فأسس مذهباً جديداً نحو عام 144م، ونمت جماعته في السنوات العشرين التي تلت ذلك، وأسست كنائس تدين لها بالتبعية في شرق الإمبراطورية وغربها. وخلاصة دعوة مرقيون أنه جاء بثنوية تنافي المسيحية، خلاصتها أن هناك إلهين، إلهاً صارماً يمثل القانون هو إله اليهود خالق الدنيا، وإلهاً للخير والمحبة هو إله يسوع المسيح، وهو أسمى من إله التوراة.

فهذا لون من الثنوية، ولكنها ليست مطابقة لثنوية الفرس، وإن كان من الواضح تأثرها بها.

ماني:

إن ماني هو أكثر الدعاة الدينيين إساءة لعقيدة الثنوية. فلننظر كيف يصور ابن النديم عقيدة ماني:

«قال ماني: مبدأ العالم كونان أحدهما نور والآخر ظلمة، كل واحد منهما منفصل عن الآخر. فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد، وهو الإله ملك جنان النور وله خمسة أعضاء: الحكم والعلم والعقل والغيب والفطنة. وخمسة أخر روحانية وهي الحب والإيمان والوفاء والمروءة والحكمة. وزعم أنه بصفاته هذه أزلي ومعه شيئان اثنان أزليان، أحدهما الجو والآخر الأرض. قال ماني: وأعضاء الجو خمسة الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة. وأعضاء الأرض النسيم والريح والنور والماء والنار. والكون الآخر هو الظلمة وأعضاؤها خمسة: الضباب والحريق والسموم

1- البيروني: الآثار الباقية ، 207-209.

والسم والظلمة. قال ماني: وذلك الكون النير مجاور للكون المظلم لا حاجز بينهما. والنور يلقى الظلمة بصفحته، ولا نهاية للنور من علوه ولا يمنته ولا يسرته. ولا نهاية للظلمة في الأسفل ولا في اليمنة ولا في اليسرة»[1].

ولقد قامت حرب بين كون النور وكون الظلمة، فامتزجت حبات من النور بحبات من الظلمة، فتكون منها عالم الدنيا. «فخالط الدخان النسيم فمنهما هذا النسيم الممزوج، فما فيه من اللذة والترويح عن النفس وحياة الحيوان فمن النسيم. وما فيه من الهلاك والإيذاء فمن الدخان. وخالط الحريق النار فمنها هذه النار، فما فيها من الإحراق والهلاك والفساد فمن الحريق، وما فيها من الإضاءة والإنارة، فمن النار. وخالط النور الظلمة، فمنها هذه الأجسام الكثيفة، مثل الذهب والفضة وأشباه ذلك، فما فيها من الصفاء والحسن والنظافة والمنفعة فمن النور، وما فيها من الدرن والكدر والغلظ والقساوة فمن الظلمة. وخالطت السموم الريح، فما فيها من المنفعة واللذة فمن الريح، وما فيها من الكرب والتعوير والضرر فمن السموم. وخالط الضباب الماء فمنها هذا الماء، فما فيه من الصفاء والعذوبة والملاءمة للأنفس فمن الماء، وما فيه من التغريق والتخنيق والإهلاك والثقل والفساد فمن الضباب»[2].

ويصور الشهرستاني ثنوية ماني الصريحة بقوله: «زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم. وزعم أنهما لم يزالا قويين حساسين، داركين سميعين بصيرين، وهما - مع ذلك - في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان، وفي الخير متحاذيان، تحاذي الشخص والظل»[3].

وتختلف المانوية عن الزرادشتية في نظرتها إلى الحياة الإنسانية والسلوك الإنساني. وأهم وجوه هذا الخلاف بين المانوية والزرادشتية ما يلي:

أولاً - أن ماني قد اعتبر المادة مصدر الشر، وبذلك أوصى بقتل رغبات الجسد، إذ أنه من أصل مادي، وبذلك كانت رغباته شراً يجب القضاء عليه. ومن الخير للإنسان - في رأيه - أن يفرَّ من العالم، وينقطع في مكان موحش لا تصله فيه الآلام أو المسرات، ولا تعكر صفوه فيه رغبات هذا العالم. أما الزرادشتية الأصلية فهي تدعو إلى التحكم في رغبات الجسد وتنظيمها، وليس كبتها والقضاء عليها. وقد شرَّع زرادشت للروح والجسد معاً. فالمادة في نظر زرادشت ليس من المحتم أن تكون شراً، وحياة الجسد ليس معناها بالضرورة موت الروح.

ثانياً - اعتبر ماني الرهبنة أعظم الفضائل، ودعا الصدِّيقين من أتباعه إلى نبذ الزواج، فهو في نظرة يعوق الإنسان عن التوجه بكيانه كله إلى ربه. إن الزواج يطيل عمر البشرية على هذه الأرض، وبذلك يؤخر من اليوم الذي يتحد فيه الروح

1- الفهرست، ص 329.

2- نفس المرجع، ص 330.

3- الملل والنحل، ج 1، ص 224.

الإنساني بربه. على أن ماني سمح بالزواج لعامة الناس الذين لا يستطيعون مقاومة رغباتهم، واعتبر ذلك شراً لا بد منه. وهذه التعاليم تناقض تعاليم زرادشت تمام المناقضة، فالزرادشتية لم تدع إلى الرهبنة في يوم ما، وحتى الموابذة (رجال الدين الزرادشتي) لم يدعوا إلى ذلك. أهورامزدا - كما يقول زرادشت - يفضل الرجل الذي يستمتع بحياة زوجية سعيدة على الرجل الذي يمارس الرهبنة. الزواج واجب ديني وواجب اجتماعي يوصي به الدين وتوصي به الدولة. ومساعدة رجل مسكين على الزواج كان يعدّ عملاً من أكبر أعمال الإحسان. ويروي هيرودوت أن ملوك الفرس كانوا يكافئون من ينجبون الكثير من الأولاد.

ثالثاً - دعا ماني إلى الصوم عن الطعام، وحضَّ عليه، باعتباره وسيلة لغفران الذنوب. وروي أنه أمر أتباعه بصوم ربع العام. وطريقة الصوم - كما أمر بها ماني - طريقة مضنية حقاً، إذ يبقى الإنسان فيها بدون طعام نحو يومين كاملين. ولم تدع الزرادشتية إلى الصوم، بل إن الزرادشتية تعدّ الصوم ونظائره من أعمال الزهد ذنوباً. وترك الطعام عمداً احتقار لنعمة أهورامزدا.

رابعاً: اعتبر ماني الفقر فضيلة، ودعا أتباعه إلى نبذ الممتلكات الدنيوية. فأما رجال الدين فقد دعاهم إلى الامتناع عن الحصول على أكثر من قوت يوم واحد، ولباس عام. فامتلاك متاع الدنيا يعدّ في نظر ماني استجابة للغرائز المنحطة في الإنسان. أما عند الزرادشتيين فليس هناك مانع من أن يكون الإنسان غنياً. ولا عيب على الإنسان إذا جمع ثروة كبيرة. ولكنه يصبح مذنباً إذا أساء استخدام هذه الثروة، أو تركها تطغى على روحه، وتجعلها مسخَّرة للمادة. حينذاك يكون الفقر خيراً منها.

لم يقدَّر للمانوية أن تعيش في إيران بعد قتل ماني، ولكنها انتشرت شرقاً وغرباً، فانتقلت إلى الصين، ثم إلى ممتلكات الدولة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي. وقد انتشرت في أوروبا خلال القرون الوسطى، وحاربتها المسيحية حتى قضت عليها. كذلك عادت المانوية بصور مختلفة في العالم الإسلامي بعد قيام الدولة العباسية، وكان لها نشاط قوي حاربته الدولة بلا هوادة حتى قضت عليه[1].

مزدك:

ظهر مزدك بعد ماني بنحو ثلاثة قرون، وكان مذهبه في الثنوية شبيهاً إلى حد بعيد بمذهب ماني. يقول الشهرستاني: «حكى الوراق: إن قول المزدكية كقول كثير من المانوية: في الكونين والأصلين، إلا أن مزدك كان يقول: إن النور يفعل بالقصد والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق. والنور عالم حساس،

1- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم ص 225-227.

والظلام جاهل أعمى. وإن المزاج كان على الاتفاق والخبط، لا بالقصد والاختيار. وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار»[1].

كان ظهور مزدك في زمن الملك الساساني (قباذ) (488-531م)، وقد استطاع أن يحدث ثورة اجتماعية جارفة، بمبادئه الاجتماعية التي دعا إليها. وكانت هذه المبادئ تسعى إلى إقرار السلام والوئام في الدنيا- على حد زعمه.

يقول الشهرستاني: «وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال. ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، أحلَّ النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها، كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ»[2].

اعتنق الملك قباذ هذه المبادئ وأيدها، وقيل في تفسير ذلك إنه أراد باعتناقها التخلص من سلطة النبلاء، ورجال الدين الزرادشتي، الذين قوي سلطانهم في زمنه. ولكن يظهر أن هذه الحركة - التي اعتنقها غوغاء الناس وعامتهم - قد أدت إلى انتشار الفوضى في البلاد، وانتهت الاضطرابات التي نتجت عنها بخلع الملك نفسه.

ولكن الملك قباذ استطاع أن يستعيد ملكه بمعاونة الهياظلة. وحين عاد إلى عرش إيران، كان له موقف من المزدكية غير موقفه السابق، فقد دعا إلى اضطهاد مزدك وأتباعه في عام 528. وحين تولى أنو شروان الملك بعد وفاة أبيه، استمر في اضطهاد أتباع مزدك. ولكن، رغم ذلك، عاشت المزدكية حركة سرية، وعادت إلى الحياة في صور مختلفة خلال العصر العباسي. وقد أحدثت كثيراً من الثورات والقلاقل في أقاليم إيران. ومن أشهر هذه الثورات تلك التي عرفت بحركات الخرمية.

وقد اختلفت الآراء في تفسير المزدكية، فرأى البعض أنها كانت حركة اجتماعية أراد بها مزدك نشر الشيوعية، بوصفها وسيلة لرفع أسباب النزاع والخلاف بين الناس. ويربطها البعض بحركة ماني التي ذكرناها. ومن أدلة الارتباط بين دعوتي ماني ومزدك ما سبق أن نقلناه عن الشهرستاني من تشابه بينهما في العقيدة الثنوية، وكذلك دعا مزدك إلى الزهد، وحثَّ على الامتناع عن ذبح الحيوان وأكل اللحوم، وهذه كلها من صميم دعوة ماني، وتخالف بوضوح دعوة زرادشت. ولكن غرابة الدعوة الشيوعية على الناس في ذلك الحين، وما أحدثت من اضطراب وفوضى، أنست المؤرخين كل ما عداها من تعاليم مزدك، فأبرزوها دون غيرها من تلك التعاليم.

انتهت ثورة مزدك بانتصار الزرادشتية، وعودة إيران إلى دينها القديم، في ظلال ملك قوي عادل هو كسرى أنوشروان[3].

1- الملل والنحل: ج 1، ص 229.

2- نفس المرجع: ص، 230.

3- د. محمد عبد السلام كفافي: في أدب الفرس وحضارتهم، ص 228-229.

الزرادشتية في العصر الساساني:

بعد تطورات متلاحقة، امتدت قرابة قرن من الزمان، أخذت تتضح ملامح الأفستا (الابستاق) التي اتخذت شكلها النهائي في حكم الملك شابور الثاني (309-379م) الذي جعلها كتاباً مقدساً للدولة، وأعلن شريعتها شريعة رسمية لها. وتبدو الافستا الساسانية مختصرة بالقياس إلى مجاميع نصوص الأفستا القديمة التي ترجع أصولها إلى العصر الأخميني، حيث ضاعت وفقدت منها نصوص كثيرة خلال الحروب والصراعات الدامية.

تضم الافستا الساسانية واحداً وعشرين نسكاً (سفراً) تشمل ثلاث مجموعات:

1- المجموعة الأولى: وتبحث في الأخلاق وأركان الدين والصلوات والعبادات.

2- المجموعة الثانية: وتتناول القوانين المدنية والجنائية وقواعد الطهارة.

3- المجموعة الثالثة: وتتناول المعارف الخاصة بالروح والجسد والنجوم والطب والتاريخ والأساطير وسائر جوانب المعرفة.

وتقدم الأفستا تصوراً للألوهية، يقوم على الاعتقاد بإله الخير (أهورامزدا) وإله آخر يمثل الشر (أهريمان). ولإله الخير معاونون أبديون مقدسون مهمتهم رعاية استمرار الحياة، ويختص كل منهم بحماية جانب منها وبعض مظاهرها وهم: الفكر الطيب، والتقوى، والحكم الصالح، والجهاد، والصحة. ولكل من أيام الشهر ربه، والأرباب طبقتان: سماوية وأرضية، ومقر أهورامزدا في السماء، أما زرادشت الذي دعا إلى الإيمان به وعبادته، فقد تحول إلى إله على الأرض.

وفي الأفستا فإن الأرباب هي التي تحمي الوجود بما فيه من طبيعة وعناصر ومن ظواهر كبرى: من شمس وقمر ونجوم وماء وتراب ونار وهواء، وبما فيه من قيم الاستقامة والحق والصدق والنور والقدرة والنصر والسعادة والسلام. وفي هذا السياق تحرس الملائكة الإنسان وترافقه في حياته وتصحب روحه عند موته.

أما إله الشر أهريمان، فهو الذي خلق الموت ويعاونه الشياطين الذين يقيمون في جهنم. ومهمتهم في الكون منع الخير ونشر الظلمة والشر والكذب والطاغوت والتعاظيم.

وهكذا يتضح لنا أن كتَّاب الأفستا في سعيهم لبلورة صيغة للفكر التوحيدي من التناقضات البارزة في الوجود، لم يتحرروا من تأثيرات العقائد الدينية الرافدية القديمة، وبخاصة فكرة نزول إله سماوي على الأرض، والقول بآلهة سماوية وآلهة أرضية. وهو ما جعل الفكر الزرادشتي، إلى جانب أمور أخرى، عرضة للجدل ومحلاً للنقد في العصور التالية.

وتحاول الأفستا أن تقدم تصوراً لصيرورة الكون ومصيره. فالأفستا وشروحها الفهلوية (الزند) تصور أهورامزدا خالقاً لعالم الأرواح، وقد بقي ثلاثة آلاف سنة سلطاناً عليه لا ينازعه منازع، ولكن أهريمان الذي خرج بعد ذلك من

الظلمة اللامتناهية ودخل عالم النور بعنف، بهره النور، فرفض الهداية، ونشب بعد ذلك صراع بين إله الخير وإله الشر ستكون خاتمته في نهاية اثني عشر ألف عام وتكون الغلبة فيه آخر الأمر للخير الذي يقهر الشر وينتصر عليه. إلا أن ذلك لن يأتي إلا بعد صراع مرير وطويل.

بعد خلق عالم الأرواح، خلق أهورامزدا عالم المادة وفي الدورة السادسة من دورات الخلق (وتستغرق كل دورة منها ألف عام) خلق الإنسان الذي أُخرج في نهايتها إلى الدنيا. وكان أهريمان قد أنهكه الصراع فأضحى ضعيفاً، لكنه أخذ يخلق كائنات شريرة مقابل الكائنات الخيرة التي خلقها أهورامزدا.

وتقول الأفستا إن أهورامزدا اشتد ساعده بظهور زرادشت الذي يعمل على نشر النور في العالم كله، وعندما يتحقق ذلك يغادر اهريمان عالم النور مهزوماً ليدخل عالم الظلام.

وهكذا يتبين لنا أن الزرادشتية تقوم على الثنوية، ولكن لأهورامزدا فيها موقع مقدس أعلى، فهو في هذه العقيدة خالق الأرباب والملائكة والكون والناس ومنه كل ما هو خير. أما أهريمان فهو خالق الشر الذي سيُهزم في آخر الزمان.

وفي تعاليم زرادشت في الأفستا حول العالم الآخر، فإن روح الميت تبقى وهي التي تحاسب بعد الموت أمام ثلاثة قضاة، فتسير على الصراط وتوزن أعمالها، فيحكم أخيراً لها أو عليها، فتصل إلى الجنة (بهشت) الأرواح التي تمر بمراحل هي الفكر الطيب والعمل الطيب والقول الطيب. أما الأرواح الشريرة فتهوي إلى الجحيم وتستقر في جهنم. وبين الجنة وجهنم منزلة تدعى (همشكان) تستقر فيها الأرواح التي تعادلت موازينها. ويكون على الأرواح بعد الحساب أن تنتظر يوم القيامة الذي ينبئ به المخلص الذي يحيي الموتى عندما ينتصر إله الخير راعي الحياة أهورامزدا[1].

عامل العرب مجوس إيران معاملة أهل الكتاب، وتركوا لهم حرية البقاء على دينهم، والاحتفاظ بهياكلهم وممارسة طقوسهم وعبادتهم. وقد بقيت بيوت النيران منتشرة في إيران فترة طويلة بعد الفتح العربي، ووصفها مؤرخو القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) كالمسعودي والمقدسي.

وقد اختلف في تفسير الأساس الفقهي الذي بنيت عليه معاملة أتباع زرادشت على هذا النحو من قبل الفاتحين العرب. فذهب بعض الفقهاء إلى أن المجوس أهل كتاب، وممن أبدى في ذلك رأياً صريحاً ابن حزم صاحب الفصل في الملل والأديان والنحل. وقد ذكر أن المجوس (أتباع زرادشت) أهل كتاب، ونقول القول بذلك عن علي بن أبي طالب وحذيفة وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور

1- د. محمد حرب فرزات: مدخل إلى تاريخ فارس وحضارتها، ص 152-154.

أهل الظاهر[1]. وأشار ابن حزم إلى مواضع متعددة من كتبه الفقهية، أبدى فيها هذا الرأي. ويختم حديثه عن زرادشت وأتباعه كما يلي: «ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ρ الجزية منهم، وقد حرم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه، وهي براءة، أخذ الجزية إلا من كتابي»[2].

واكتفى الشهرستاني صاحب الملل والنحل بوصف المجوس بأنهم قوم لهم شبهة كتاب، أي أنهم كانوا يتبعون كتاباً أصابه التحريف والخرم.

وإذا تركنا ميدان البحث الفقهي ونظرنا في الواقع التاريخي، فسنجد أن التاريخ لم يسجل في أي من الفتوحات العربية أن المسلمين فرضوا دينهم بالقوة على شعب من الشعوب التي دخلوا بلادها، مهما كانت عقيدة هذا الشعب. وهذه الشعوب جميعها قد استمتعت بسماحة الحكم العربي، وتحولت كثرتها إلى الإسلام بمحض إرادتها، ولم تمارس الحكومات الإسلامية ضغطاً على أتباع المذاهب المخالفة، إلا حين شكل هؤلاء حركات سرية أو ثورات عاتية، كانت تهدف إلى قلب الحكومة الإسلامية، كما فعل الزنادقة والخرمية في العصر العباسي.

1- ابن حزم: الفصل في الملل والأديان والنحل، ج 1، ص 114.
2- نفس المرجع، ص 115.